على ظهر النيل

تقتضب الكلام الآتي من كتاب رحلة بهذا العنوان للفاضل الالمعيّ والكاتب المتفنن اللوذعي احمد زكي بك الشهير صاحب كتاب السفر الى المؤتمر وقد خرج للسياحة وترويح النفس على ظهر النيل فكتب في ذلك ما لقنهُ خاطرهُ الواسع من وصف ما شاهد في تلك الرحلة وما عنّ لعين بصيرتهِ من لطيف المعاني. قال حفظهُ الله من كلام

... نعم هو النيل الذي لم يبقَ لي ولا لغيري مجالٌ للاخبار عنهُ والتعريف بهِ فقد سبق السابقون من بني مصر وهم السابقون في مضمار الفضل والنبل والمجلّون في حلبة الاختراع والابداع فقدّسوهُ حتى جعلوهُ الهًا يخصّونهُ بأجلّ العبادات ويتحفونهُ بالضحايا ويتقربون اليهِ بالقربان والقُربات فلم يتركوا من غرضٍ يتوخاهُ الوصّافون او مغزًى يكشف عنهُ المعبّرون اذ ليس بعد التأليه من تشبيه ثم جاءت العرب من بعدهم فجزموا بانهُ مَلِكٌ قد بسط ذراعيهِ على البلاد بل مَلَكٌ وافى من الفردوس يحمل رَوح الجنّة الى العباد وليس وراء ذلك لواصفٍ مقال ولا لمادحٍ مجال

يتقاطر الناس من اقصى الجوانب ويتوافدون من المشارق والمغارب ويبذلون في سبيل الوصول الى هذا الوادي البهيج كل مرتخصٍ وغالٍ ليقفوا على شيء من محاسن بلادنا ويحوزوا اثرًا من مآثر أجدادنا فيرسلون اشعّة ابصارهم فيما لم يبرح بين ايدينا واعيننا اعصارًا طوالاً وهم في واد ونحن في واد م في وادي النيل ونحن في وادي الاضاليل ثم يعودون الى اوطانهم وقد استفاد المؤرّخ والعالم وانتفع الصانع والتاجر ونحن جاهلون بما استنبطوهُ من

جليل الآثار والعبَر ذاهلون عما استفادوهُ من بديع الصناعة ونفيس الحكم لا نعلم لما تركهُ اسلافنا الاولون قيمةً ولا نفعاً حتى يتفضل اولئك الاجانب بارشادنا اليهِ ويأخذوا اجرهم اضعافاً مضاعفةً من ثنآء ينهالـــ عليهم انهيالا وفخرٍ يعتزّون بهِ تيهاً ويتيهون بهِ اختيالا مع اننا نحن اصحاب الدار غير اننا قد تعاهدنا على تكذيب المثل السيّار وبتنا ونحن اجهل الناس بما لدينا من تلك الآثار

ألسنا نرى فتيان مصر كلما اصابتهم من التمدن الحديث نفحة او اصابوا من العرفان العصريّ مسحة اشرأبّت اعناقهم الى اوربا فاصبحوا واياها كصاحب الحاجة الارعن لا يرى سواها ولا يطلب الاّ قضاها ولا يحلم الا بها ولا يستيقظ الا بذكراها فاذا ساعدهم المقدور وتيسرت لهم الامور هُرعوا اليها سراعاً وتقاطروا اليها تِباعاً وربما كان اكثرهم لم يرَ الاهرام وهي اليهِ اقرب من حبل الوريد بل اذا أُتيح لهُ رؤيتها اكتفى بارسال النظر اليها من بعيد ولم يقف عند قاعدتها يتأمل تلك الجبال القائمة من حجر الصوّان حيث لا جبال الاّ جبال الرمال ولم يصعد الى قمتها يرسل بصرهُ فيما تحت قدميهِ من المنظر البديع المثال. وترى الواحد منهم اذا رجع من اوربا عاد وهو يحدّث نفسهُ ويحدث جيرانهُ بما رآهُ من عجائب الامور وغرائب المسموع والمنظور وهو لا يكاد يعرف شيئاً من كنوز بلادهِ التي هي اشرف شيء في المعمور بل لا يشعر بوجود ما حولهُ من الذخائر الاسلامية الباهرة والعمائر العربية الفاخرة التي ازدانت بها مدينة القاهرة

اقول هذا الكلام وانا اعترف امام الله وامام الانام باني احقّ ابنآء بلادي بهذا الملام ولكن الحسنات يُذهبنَ السيّئات فعسى ان يتنبه لقولي

من يصل اليهِ ندآئي وعندي انهُ ليس افضل ممن لم يكن لهُ الاّ حسنات يتلوها حسنات . ولقد نبهني ضميري ودعاني وجداني الى خوض عباب هذا الموضوع بينا كانت الباخرة تخوض عباب النيل وقد حوت تسعة وخمسين سيّاحاً وسيّاحةً غالبهم من الانكليز والاميركان ولم يكن بينهم من المصريين سوى طربوشين خلاف طربوشي . . .

مشينا في النيل ونحن لا نكاد نجد الوقت الكافي للتمتع بالمناظر الشائقة التي كانت تتجلى امام اعيننا ذات اليمين وذات الشمال فلله هذا السحر الحلال بل لله درّ هذا الوادي الذي لا يفي بوصفهِ قلم البليغ وانما يجوز على مخيّلة الشعرآء ان تصورهُ بكل ما هو آيةٌ في الجمال فانهم في كل وادٍ يهيمون فكيف لا يهيمون في وادي النيل الذي قد اجتمع فيهِ النقيضان واصطلح عندهُ المتخاصمان فينا ترى ضفّتهُ الشرقية يشرف عليها الجبل المقطم ويرسل اليها النظرات متتابعات وهو عليها غيورٌ شفيق وبها كلفٌ مغرم وقد جعل نفسهُ ترساً يقي مزارعها البديعة واراضيها المَريعة من هجمات الطبيعة اذا بالضفة الغربية وهي متوشحة برياضها وادغالها ولكن الرمال غارت من جمالها فاغارت عليها بجبالها فاشبهت الظلام حينما يهجم فيمحو الضيآء او الحِمام اذا انقضّ فقوّض اركان البقآء لذلك تنبّه الاول من آل مصر لصدّ هجمات هذا العدوّ المبين والمغير المستديم فأقاموا على حافة صحرآء لوبية (الصحرآء الغربية) نواطير وارصادًا من الاهرام المتوالية المتقاطرة وكلها كخطّ دفاعٍ اقامهُ امهر القوّاد من الجنود البواسل فاصبحت حرزًا حصينًا لوقاية هذا السهل الخصيب من انهيال الرمال بحيث اذا فاجأ احدها الخطر تنبّه اليهِ ونبّه اقرب الاهرام عليهِ فيتصل الصريخ ويتوالى النفير وبهذه المثابة بقيت الرمال واقفة على قدم المهابة والاحترام تدفعها الرياح

فتصدها الاهرام فلذلك تراها لا تزال متأهبة للوثوب في كل آن مترقبةً فرصةً للهجوم وهيهات ان يقع ذلك منها في الامكان

الحرب

الحرب مناجزة المتخاصمين بالسلاح طمعاً في جرّ مغنم او دفعاً لمغرم فهي هجوم ودفاع وسطوة وامتناع فُطر عليها الانسان لما في طبعهِ من الاثرة والعدوان ونزعت اليها القبائل والممالك في كل زمان ومكان على ما يصحبها من نهب الاعمار وهدر الدماء واستباحة الذمار وجوائح البلاء وما تجرُّ ورآءها من البوار والدمار وتخريب الديار والجوع والوباء وجميع ضروب الشقاء فهي اعظم الخطوب الملمّة بالسلائل البشرية واشد المصائب على الحالة المدنية بل هي اكبر جنايةٍ اقترفها الانسان ضدّ نفسهِ وتعمدها لهلاك ابناء جنسهِ على ان قوماً لا يرون فيها الا العدالة يصان بها الذمار والعزّة تُحمى بها الممالك والامصار والأَنفة من احتمال مذلة الضيم والعار والقوة التي يمتنع بها الجار على الجار وقد كُتبت على الناس مكرهين وربما جُبلت فرضاً من فروض الدين ولم تزل الامم تعظم شأن الابطال وتقيم الانصاب للذين غلبوا في ساحة القتال تخليدًا لذكرهم واجلالاً لقدرهم قال ابو الطيب

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذَى حتى يراق على جوانبهِ الدمُ

وقال

أعلى الممالك ما يُبنى على الاسل والطعن عند محبيهنَّ كالقُبَلِ
وما تقرُّ سيوفٌ في ممالكها حتى تُقلقَل دهرًا قبلُ في القُلَلِ